تأملات على هوامش التجريب

سهام بيومي

□ من الصعب توصيف التجريب، فهو نتاج المغامرة الإبداعية وحرية المبدع، يقوم بكسر الإيهام والتوقعات المسبقة لدى المتلقي على مستوى الرؤية والبناء واللغة، التي تستند إلى خبرة معرفية، هو علاقة جدلية بين المبدع والرواية، كل منهما يصوغ الآخر، ويفتح آفاقاً جديدة للرؤى، وهو تراكم في الخبرة الإبداعية.
في مجتمعاتنا العربية نربّى على الأوامر والنواهي المستمدة من منظومة القيم المتوارثة التي تقمع الفرد الذي يخرج عنها، ولا يعرّفنا أحد حقوقنا ولا نتعود على ممارستها، ومن ثم التعبير عن أنفسنا، والكتابة هي مران على اكتساب حريتنا المفتقدة وممارستها، وأتوقف هنا عند بعض التأملات والخواطر المحيطة بالتجريب :

○ القول إن كاتباً ما يمتلك أدواته أو يسيطر عليها يجعل من الكتابة عملاً حرفياً، فالخبرات المكتسبة من الكتابة في حالة تحول وتطور مستمر من عمل إلى آخر، وقد يُغري العمل التجريبي الأول الناجح أن ينسج الكاتب على منواله في أعماله اللاحقة، بدعوى أن يكون له طابع مميز، فتتحول الكتابة إلى عملية حرفية تُجهض التجريب، كذلك فإن تقييم الطابع المميز لكاتبٍ ما لاحق على تراكم كتاباته واستنباطها منه.

○ أحياناً يكون التناول النقدي أشبه بمحاكمة للنص، وليس بالحوار مع النص الذي يثري خبرة الناقد والكاتب معاً، وكلما ضاق أفق النقد تعالى على النص، وتحول إلى قوالب تفرض على النص مقاييسها التي تخنق التجريب وفقاً لتوقعات مسبقة.

○ هيمنة الأيديولوجيا تحدّد منطلقات الكاتب وتقوّض المغامرة الإبداعية وتَخلق نموذج البطل الذي لديه الإجابة على كل الأسئلة.

○ في زمن ما يسمى بالعولمة يتم تسليع الرواية والأدب ككل وفقاً لمتطلبات القوى المهيمنة، وتسود الكتابات عن موضوعات معينة يروجون لها من خلال عمليات النشر والدعاية، وتهمش إبداعات أصيلة وتقضي على التنوع الخلاّق، وهو ما يغري بعض الكتاب باللحاق بها سعياً للانتشار.

○ الذيوع والانتشار ليس دائماً مقياساً لجودة الرواية، فمع انتشار الأمية وانخفاض مستوى الثقافة بين المتعلمين، هناك الكتّاب الذين يريحون القارئ ويقدمون له الوجبة الجاهزة لتوقعاته متبّلة بالمحظورات التي يُحجم عن الخوض فيها بتأثير المناخ السائد، مثل ثالوث السياسة والجنس والدين، وهي أعمال لا تضيف شيئاً على المستوى الإبداعي، فالكتابة ليست محاكاة للواقع، ولا تستند إلى مرجعيته، بل رؤية له تعيد صياغته على نحو أفضل.

○ كذلك تناول التاريخ في الرواية ليس محاكاة له أو إعادة إنتاجه ليحكم الحاضر مثل الطقوس السحرية التي تقام لتحضير العفاريت، ولا يعرفون بعد ذلك كيف يصرفونها، وليست – أيضاً – استعراضاً معرفياً لأشياء كُتبت بالفعل ومكتملة في متونها، وتجعل المحاكاة لها صوراً باهتة بالرجوع إلى النصوص الأصلية، خصوصاً التواريخ الوسيطة التي كتبت بلغة درامية ومزجت بين اللغة الأدبية والتاريخية، وليس اتخاذه إطاراً مرجعياً لننظر إلى الحاضر من خلاله، على نحو ما فعل المويلحي في »حديث عيسى بن هشام«، بل استحضار التاريخ للحاضر وتناوله برؤى جديدة وإنطاق المسكوت عنه.

تدوير الرواية العربية.. أزمة التلقي والنشر

هشام علوان

إذا كان النص الجيد- كما يشير معظم النقاد- هو »حمّال أوجه« فإن أحد هذه الوجوه التأويلية، قد يثير لغطا ما، لو فسر خطأ من البعض عند التلقي، مما يحمل النصَّ أكثر مما يطيق، رغم انتفاء القصدية من المؤلف، وعدم إدراكه في أثناء القيام بعملية الكتابة، تلك الأوجه الخفية لتفسير الإبداع، وقد يفاجأ بها بعد تداول العمل، وطرحه في الأسواق، وتحليله نقدياً، وفهمه من القراء على هذا النحو.
فالعمل الأدبي يعد رسالة معقدة البنية بين مرسل هو المبدع، ومستقبل هو المتلقي، الذي يعد ركيزة أساسية لإتمام دائرة الابداع، ولهذا أصبح واجبا علينا دراسة المتلقي، وكيفية تلقيه النص، وكذا المشكلات التي تحول دون استيعابه أو إدراكه لجوهر الكتابة وجمالياتها.
فالقارئ يدخل إلى العمل الأدبي بمرجعية عقدية وفلسفية وتعليمية واجتماعية، ويحاول إخضاع النص لهذه المرجعية، فيعيد تدويره وقد ينتج داخله نصاً جديداً لم يخطر ببال المؤلف نفسه. وسيكون التناول من خلال عدة نقاط:

أولاً: التلقي والبناء الروائي:
تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل (١).
ذلك أن الرواية عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب، متداخل الأصول، لأنها ابنة الملحمة والشعر الغنائي، والأدب الشفوي، ذي الطبيعة السردية (٢).
ولهذا فإن البناء الدرامي للرواية العربية، تغير واختلف، وتطور بطريقة مذهلة.

ثانيا: التلقي واللغة:
النص اللغوي في جملته، هو نص في موقف (٣)، فلا يجب أن نخرج لغة الكاتب وألفاظه عن الموقف الذي جرى فيه.
وإن كان هذا الكلام ينطبق على اللغة المتداولة، فما بالنا باللغة السردية التي تنتهج البلاغة، والتي تعد كائنا حيا ومحملة بالدلالات، كباقي الشخوص في الرواية، ويمكن النظر إلى اللغة كما رآها الدكتور مصطفى ناصف، على أنها الوجه الإنساني للعالم فاللغة تصنعنا، ولكنها لاتقرنا، ولاتجعلنا عبيداً (٤).

ثالثا: التلقي والرمز:
عرف الرمز في الأدب العربي بعد ترجمة الآداب اليونانية والفارسية، وهو الرمز بالشخصيات أو ما عرف في مابعد بالأدب التمثيلي، ولعل كتاب ابن المقفع »كليلة ودمنة« هو مثال على الرمزية، بحيث يأتي بشخصية حيوانية تسير الأحداث، وهو بذلك يرمز إلى الواقع البشري، والرمز بهذا المعنى هو خلق شخصيات وأحداث لعالم مختلف ويرمز بها إلى الواقع.
ويعد الرمز هو أشهر معوق للتلقي في الرواية العربية، حيث يتم تحميل النص بأوجه عدة للتأويل، الخاضع غالباً لثقافة المتلقي.

رابعا: التلقي والميديا:
يمكن القول ان العصر الذي نعيش فيه هو عصر الميديا، فالعالم صار بالفعل قرية صغيرة، ولم تعد الميديا تتحكم في الذائقة الجمالية والفنية للإنسان فحسب، بل أصبحت هي المعيار الذي يقيس عليه الإنسان في العصر الحديث أسباب نجاحه وفشله، فأصبح يتبنى آراءها، ونظرتها النقدية ولغتها، ويبتعد عن كل ما يخالف تلك المعايير.

خامسا: شفاهية التلقي:
الشعوب العربية تميل بطبعها إلى الشفاهية، فالعربي القديم سجل يومياته وأحداث قبيلته شعراً، لسهولة حفظه وتداوله بين القبائل، ووصلت إلينا الملاحم الكبرى في صور شعرية، بل إن سير التابعين والأبطال مازالت تروى كحكايات بالشعر المصاحب غالبا للربابة والغناء، رغم أن المتن قصصي.
ربما كان السبب في ذلك ارتفاع نسبة الأمية، وتعود الذائقة الأدبية العربية للسماع.

سادسا: التلقي والنشر:
يعد الناشر هو المتلقي الأول للنص الإبداعي، وهو أهم متلق، لأن عدم اقتناعه بالعمل ومضمونه، سيحرم بقية المتلقين من استقبال هذا العمل منشو.
فالناشر إذن قارئ من نوعية خاصة، عليه أن يدرك أهمية الدور الذي لعبه على مستوى الساحة الثقافية العربية، من هنا تبرز مشكلات كثيرة بين المتلقي والنشر، أهمها:
– غياب نظام المعلومات والتنسيق.
– عدم وجود معايير متفق عليها حول جودة النصوص.
– الرقابة بمختلف أنواعها: إعلامية ودينية وأمنية ورقابة المعارض ورقابة الأغلفة.
– ضعف الأسواق العربية.
– التوزيع والتسويق.

هامش
١– د. عبدالملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٢٤٠، ط١، ص١١٠
٢– المرجع السابق، ص٢٧٠
– ٣د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، العدد١٦٤: ، ص٩٧٠
– ٤د. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، العدد١٩٠: ، ص٢١٣

□ من أوراق ملتقى الرواية العربية بالقاهرة